

اللغة العربية بين النزوع الحرفي للترجمة وماجس التأويل المعرفي

المصطلح النقدي كنموذج¹

بشرى عبد المجيد تاكفر است

ينبض قلب العالم العربي وسط صراعات وحركات في مستويات عدة، وليس المد اللغوي بغائب عن الساحة، في وقت ترفع فيه العولمة راية الاندماج الحضاري، والاكتماح الجارف للخصوصيات اللسانية واللغوية والثقافية... لتشكل خطراً كبيراً وتحدياً متواصلاً للهويات الوطنية... فهي تحاول أن تؤسس لنفسها مكاناً في موازين العقل والواقع، أدواتها في ذلك مبدأ الإلغاء ونظرية البقاء للأقوى.

واللغة العربية كمؤسسة ثقافية واجتماعية تواجه اليوم العديد من الإشكالات التي تتصل بالترجمة والتعريب ونقل المفاهيم، لأننا نعيش في عصر ثقافة المعرفة ومعرفة الثقافة، عصر تتصارع وتتضاعف فيه المعلومات مما يدفع البعض إلى القول بأنها - اللغة العربية - غير قادرة على مواكبة ما يتفجر من مصطلحات أجنبية جديدة نتيجة للتقدم العلمي والتقني، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل الواقع الأكاديمي العربي مارس تحصين مدارات الاصطلاح النقدي العربي في عصر التكتلات النقدية العالمية، أم أنه آل إلى الاطمئنان للنسق المتسم بمسيرة تستر العيوب، واقنع بثقافة الغياب التي لا تشكل إلا خطوة أولى نحو الانغلاق أولاً، ثم نحو التهميش والإقصاء ثانياً؟... تشير مسألة الوضع الاصطلاحي في العلوم الإنسانية كثيراً من الجدل المتواصل، لاسيما حين يتعلق الأمر بالمصطلح المترجم عن لغات ذات أصول انتمائية وحضارية متباعدة. وما يقال في كثير من المؤتمرات العلمية و اللقاءات الثقافية، وما يؤلف من كتب في مسألة المصطلح تعريباً وترجمة وتوليداً، يمكن

¹ - هذه المداخلة تقدم لأول مرة كمشاركة في المؤتمر الدولي للغة العربية تحت عنوان: "العربية لغة عالمية: مسؤولية الفرد والمجتمع والدولة" الذي ينظمه المجلس الدولي للغة العربية بالتعاون مع اليونسكو وعدد من الهيئات الدولية، وذلك بتاريخ 19-23 مارس عام 2012م / بيروت / لبنان.

أن يقال بصيغ متشابهة في النقد الأدبي وهو يتعامل مع المصادر الأجنبية في نصوصها الأصلية إنجليزية كانت أم فرنسية، كما تتشابه المشاكل التي تعترض الخائضين في هذا المجال سواء من حيث ما يتصل بعملية الترجمة وضياح الدلالة بتعدد الطرائق اللامنهجية، أو ما يرتبط بالتواصل أو انعدامه بين الباحثين أنفسهم، وما ينجم عن ذلك من اختلاف في الاصطلاح، واضطراب في الفهم والتفاهم، والدعوة لتوحيد المصطلح والسعي لنشره بين المختصين وعامة الباحثين، باعتبارها ظاهرة صحية ليست من باب "اختلاف الترجمة رحمة نقدية".

و يشكل المصطلح باعتباره وحدة لغوية تمثل لمفهوم محدد داخل لغة الاختصاص حلقة ربط بارزة في سلسلة الميادين المعرفية المختلفة والمتعددة، ويلعب دورا هاما في عملية إبلاغ ما توصلت إليه أجيال الحضارة الإنسانية سواء أكانت مترامنة أم متعاقبة، بدقة ووضوح بحيث لا يقع أي لبس في ذهن القارئ أو السامع. فهو وسيلة لتنظيم المفهومات المعرفية وفق عوامل مشتركة وتأطيرها بتسمية معينة ، وقد كان ذا أهمية كبيرة في الثقافة العربية ، وهي أهمية لا تنفصل عن عناية القدماء بالتأصيل لأدوات التفكير العلمي وإجراءاته ، فهذا أبو حامد الغزالي يعرف الحدّ بأنه " تعريف المعنى بلفظ يطلق على المعنى " ²، أثناء حديثه عن مصطلح التضاد ، وهو تعريف يلامس مفهوم المصطلح من جانبه اللغوي ، إذ أن المصطلح كذلك هو " اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى " كما سيمر معنا في تعريف الجرجاني له . ويتحدث ابن خلدون في مقدمته عن علاقة المصطلح بالعلم وأهميته في تحديد العلوم فيقول : " تعليم العلم صناعةً اختلافِ الاصطلاحاتِ فيه، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأنَ الصنائعِ كلّها... " ³، أما عمل الجرجاني في كتابه التعريفات فيمكن أن يعد عملا اصطلاحيا مبكرا ، حيث يجمع فيه مصطلحات من مختلف العلوم ويقدم دلالاتها المتعددة.

ويحتل المصطلح، في العصر الراهن، مكانة مرموقة في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية، والبحث فيه من شأنه أن يؤهل اللغة للقيام بأدوارها الدلالية والإجرائية والعلمية. لقد أصبح النجاح في بناء الأنساق المصطلحية يشكل مقياسا لتقدم العلوم، إنه ذو أهمية قصوى بوصفه بنية سيميائية ودلالية وتداولية مشتركة بين الثقافات واللغات الإنسانية المعيشة... وهو موغل في التجريد باعتباره يكتنز التصور والمفهوم، وقد ينزاح المصطلح عن غير ما وضع له لعدم التطابق بينه وبين علامته. من هذا يمكن القول إن قضية دراسة المصطلحات من القضايا

² - أبو حامد الغزالي محك النظر في المنطق، ضبطه وصححه محمد بدر الدين النعساني/ ص45، دار النهضة الحديثة ، بيروت / لبنان 1966 .

³ - ابن خلدون، مقدمة ، الطبعة الخامسة، ص 430 / دار القلم بيروت / لبنان.

الأساسية التي ينبغي على الدارسين العناية بها في كل الميادين، بما في ذلك الخطاب النقدي الذي تزداد فيه أزمة الاضطراب لانفتاح خطابه خارجياً وداخلياً، إذ المساهمون فيه متعددون متنوعون، من متعلم وسامع وقارئ، وأديب، ولغوي، وراوية، وناقد...

ويصاغ المصطلح النقدي كغيره من المصطلحات اللغوية والأدبية والبلاغية والعلمية في اللغة العربية ذات القدرة الفائقة في توليد المصطلح أو صياغته أو إذا شئنا في صناعته، بواسطة مجموعة سبل وطرائق، ولعل أهم هذه السبل:

*النحت: وهو في الفرنسية يقابل الـ Contamination ويقصد به استخراج أو انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر قصد الاختصار على أن يكون هناك توافق في اللفظ والمعنى المنحوت والمنحوت منه.

*الاشتقاق: وهو استخدام الحركات في صوغ الكلمات من المادة على أساس قياس مطرد، وهناك ثلاثة أنواع من الاشتقاق يمكننا صوغ المصطلح منها وهي: الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر، ومن أجل هذا توصف اللغة العربية بأنها اشتقاقية لأن كلماتها تتواصل عن طريق استخدام المادة بجميع الصور، لذا يعد الاشتقاق الوسيلة الرئيسة لوضع المصطلحات العلمية والفنية والتقنية (التكنولوجية) في اللغة العربية.

*التعريب: وهو نقل كلمة من لغة أجنبية إلى اللغة العربية محتفظة بجرسها وحروفها حيناً ومعربة بمعناها بلفظ عربي حيناً آخر.

* الترجمة: وتعد الترجمة من أهم وسائل التلاقح الثقافي وتحقيق التقارب الفكري المنشود بين مختلف الأمم والشعوب بعيداً عن الفوارق العرقية والدينية واللغوية... ويبدو أن مشكلة التعامل مع المصطلح النقدي قد ظهرت بصورة قوية منذ أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات وبالذات بعد أن ضخت الاتجاهات النقدية الحديثة التي أطلقها الانفجار اللساني والسيمائي مجموعة كبيرة من المصطلحات النقدية الجديدة التي تمحورت تحت أبواب الشعرية Poétique والسردية narratologie والتأويل والقراءة والتلقي والتفكيك والبنية وما إلى ذلك والتي تشكل بدورها معجماً اصطلاحياً متكاملًا.

والمصطلح النقدي يواجه اليوم صعوبات جمة، في ظل الانفجار المعرفي المتزايد بسرعة ملفتة في زمن العولمة، وفي كنف انفتاح العالم العربي على غيره وتأثره به، وفي ذلك يقول إبراهيم السامرائي: "تأثر العربي

وهو في بيئته بها [يقصد الحضارة الغربية الوافدة] في أفكاره، وتأثر في طريقة عيشه، وتأثر في جوانب كثيرة من حياته اليومية، وصار العربي يقرأ ثمرات الفكر الأوروبي في اللغات التي كتبت بها [..] فقد جدت فيها [أي اللغة العربية] أساليب كثيرة لم تكن إلا وليدة الترجمة" ⁴، يرشح هذا النص بأن مسألة اضطراب المصطلح في الدراسات الأدبية والنقدية لا تخرج عن خصوصية إشكالية الترجمة.

تلعب هذه الأخيرة دورا هاما في نقل المعرفة، وفي التواصل العلمي والتقني والتفاعل الحضاري بين الشعوب، فهي من أكبر البوابات التي تعبر منها العلوم والمعارف والثقافات من لغة إلى أخرى، ومن أمة إلى أمة، وأحيانا من عصر إلى آخر، يقول أبو يعرب المرزوقي: " إن ظاهرة الترجمة ملازمة لتاريخ الإنسان الكوني ذلك أن تعدد الشعوب واختلاف اللغات التي أسهم أصحابها فيه، وفي الحضارة الإنسانية، جعلها الأداة الوحيدة لسد حاجة التواصل المصاحب لكل أنواع التبادل بين البشر فرادى وجماعات" ⁵ ولا تتم النهضة الشاملة والتنمية المستدامة إلا بتعزيز مجتمع المعرفة بالترجمة الخاضعة للمعايير العلمية. فلا مرء أننا نعيش اليوم اختلاطات متشابكة في ترجمة المصطلح الأجنبي إلى اللغة العربية. وأصبحت هذه الفوضوية تطرح أكثر من أي وقت مضى، جملة من المشاكل وكثيرا من الجدل بين الباحثين والنقاد، إذ يجد المترجمون صعوبة كبيرة في ترجمة النصوص النقدية لانتظامها داخل شبكة اصطلاحية شديدة التعقيد في زمن يشهد النقد العربي اتساعا على مستوى التأليف والترجمة. فكل ترجمة لمصطلح معين غير مضبوط يؤدي إلى تشويه النظرية النقدية فمشاكل ترجمة المصطلح يعيها المترجمون باستمرار، ويعملون على تجاوزها والسبب في ذلك:

أولا: أن المصطلح عامة في أي تخصص كان، مرتبط بثقافة مغايرة في الجذور والطقوس المعلومة، مرجعا وسياقا، مما يقتضي ممارسة التأويل الذي يجر النص إلى متاهات تبعده عن حقيقته وكنهه، وتضفي صفة الغموض على المصطلح النقدي العربي الحديث، ثم إن المصطلح في بيئته الأصلية قد يكون غامضا وفضفاضا. نتيجة ترجمة غير أصلية، فيترجم بمقابل عربي غير واضح ودقيق، وفي ذلك يقول الجاحظ: " ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة، واللغة المنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية... وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان

⁴ - إبراهيم السامرائي: " معجم ودراسة في العربية المعاصرة " المطبعة الألفية مكتبة ناشرون ، ص : 1

⁵ - أبو يعرب المرزوقي: " الترجمة العلمية بما هي ظاهرة اجتماعية أو فنية، في الترجمة ونظرياتها"، ص: 25 /بيت الحكمة،

أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه. ولن تجد ألبتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء.⁶ فالترجمة بهذا المعنى عملية تواصل من نوع خاص، لأن المترجم إنما يقصد ما يقصد إليه المفسر، فيشرح للسامع أو القارئ كلاما في لغة لا يفهمها.

ثانيا: ارتباط المصطلح بفلسفة معينة، وانغماسه داخل تخصص من الدقة بمكان لدرجة يصعب معها إيجاد مقابل له داخل اللغة الأخرى، إما لانعدام التخصص أو لعدم ذبوعه وانتشاره، أو عدم توافقه مع طبيعة الثقافة والقيم ونوعية التفكير السائد، زد على ذلك مشكل المترجم الذي ينبغي في كل الأحوال أن يكون على معرفة تامة باللغة المصدرة والمستقبلة، وأن يكون من ذوي التخصص في المجال الذي يرغب الترجمة فيه.

إن بعض هذه المشاكل أو كلها هي التي سببت اضطراب المصطلح النقدي وأضافت أزمة أخرى إلى الأزمات التي يعاني منها وضعا ومفهوما، وأحدث انحرافا ينم عن اختلاف الترجمات من قطر إلى قطر فتلاحظ المترجمون بالمغرب تختلف ترجمتهم عن المترجمين بمصر بل تلاحظ المصطلح الواحد بأكثر من ثلاث مصطلحات داخل البلد الواحد، وفي الحق إن النقاد واعون بهذه الأزمة وهم لا يتورعون في التصريح بها كلما أتاحت لهم المناسبة، فتجدهم يعترفون بشدة المعانات التي يصادفونها أثناء ترجمة المصطلح النقدي إلى اللغة العربية وقد يضطرون في أكثر الأحيان إلى إبقائه على أصله لعجزهم عن إيجاد مقابل له، وأحيانا إلى وضع وتوليد مصطلحات جديدة.

ثالثا: وهذا ما يفسر ترجمة الكتاب الواحد مرات عديدة داخل القطر الواحد وفي زمن متقارب، فلو تأملنا الترجمات المنشورة في الساحة النقدية لوجدنا أن الفرق بين طبعة بعضها البعض لا يتجاوز في بعض الأحيان السنة، وحتى إذا افترضنا أن المترجم في بلد ما لم يطلع على الترجمة التي نشرت في غير قطره، فإنه من المستبعد أن نتصور أن مترجما لمؤلف ما لم يطلع على من ترجم هذا العمل في بلده إن لم نلاحظ أنه استفاد منه مما يعني أن الأمر فيه نوع من التسابق نحو الشهرة أو حول ربح قد يدره توزيع الكتاب، وقد نلاحظ ذلك في مقدمات هذه الترجمات التي تهدف إلى تبرير إعادة الترجمة، وعلى سبيل المثال ما كتب في مقدمة التحرير لمجلة "العرب والفكر العالمي" مبررة إعادة ترجمة كتاب "لذة النص" Le plaisir du texte لرونالد بارت Rolland Barthes بعد عدة ترجمات. "لقد رغبتنا حقا في هذا النص وفي إعادة ترجمته رغم محاولات

⁶ أبو عثمان الجاحظ: "الحيوان" الجزء 1 ص 76/77 تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت.

مشرقية ومغربية، وأردنا نشره واسعا لأن المحاولات السابقة ليست مقصرة بعض التقصير أو كله هنا أو هناك في الأداء والفهم فحسب، بل محدودة الانتشار إقليميا وقطريا... وأخيرا قدمنا هذا النص المنشور بعد مراجعة أخيرة من قبل رئيس التحرير الذي رأى في الجهد المغربي ما يشبه المحاولات الأنجح حتى الآن⁷، ويبدو أن هذا التبرير لإعادة الترجمة لا يقف في وجه النقد، لأنه لا مجال للحدوث عن التقصير وهو يشهد بتميز الترجمة المغربية أكثر من مرة وعليه فالمسألة ذاتية وليست علمية، فمن يطلع على الترجمتين يدرك ذلك بوضوح، والحالة نفسها يمكن أن تتكرر على أكثر من مستوى، وتبدو في أكثر من مظهر...

رابعا: ومن الأمور التي تزيد في تعقيد ترجمة المصطلح النقدي عدم إطلاع المترجمين العرب، والنقاد خاصة، على كتابات بعضهم البعض الشيء الذي نتج عنه وجود عشرات المصطلحات لمفهوم واحد، وترتب عنه خلط في ذهن وفكر القارئ. ورغم أننا نجد من وضع ثبنا للمصطلحات في آخر كتابه ليسهل على القارئ فهم ما استغلق من معاني الكتاب بإمداده بمفاتيح مصطلحية، فإن تلك المفاتيح تشكل في نهاية المطاف لغة ثالثة بين اللغة المنقول إليها واللغة المنقول منها فنكون أمام نصف ترجمة في أحسن الأحوال، وأمام لغة غير مفهومة في الغالب، وقد وصل الأمر في إحدى الحالات إلى تسمية ثبت المصطلحات المستمدة من كتاب "فلاديمير بروب" Vladimir Probe عن الحكاية الشعبية "ثبت المصطلح اللساني" مع أن الرجل لا يهتم في كتابه هذا باللسانيات...

خامسا: وقد زاد من صعوبة الترجمة واضطراب المصطلحات في مجال النظريات النقدية، قلة المعاجم الخاصة وندرته وعدم الإجماع عليها. إن النظريات النقدية تتوالد وتتناسل يوما بعد الآخر والحاجة إلى ترجمتها أصبحت مسألة ضرورية لمواكبة ما يجد في الساحة العالمية وخلق حوار بين ثقافتنا عامة ونقودنا العربية خاصة، وثقافات وآداب الغير، تفاديا للاضطراب المصطلحي الذي صار يطبع الساحة النقدية، والذي يفرض إيجاد حل سريع وناجع.

سادسا: لا يجب أن نغفل مشكل إتقان اللغات. فكم من أشباه المترجمين لا يجيدون إحدى اللغتين الأصلية أو المنقول إليها أو هما معا، أو عدم تخصصهم في المجال الذي يترجمون فيه. فالترجمة منذ القديم وخاصة الأدبية من أصعب الترجمات عن الإطلاق لأنها تقتضي معرفة اللغة المترجم منها والمترجم إليها معرفة

⁷ مجلة "العرب والفكر العالمي" - مقدمة - بيروت 1990.

كاملة ودقيقة. ويبدو أن كثيرا من المترجمين في العصر الحاضر لا يفون بشرط إجادة اللغة العربية ، وحتى إن توفر هذا الشرط فإن أثره يبدو فيما نقرأه من مصطلحات مترجمة، لننظر إلى الترجمة التالية:

ميثا لغوي: Meta-langage

ميثا نفس: Meta-psychique

مما يبدو أن هذه الترجمة تتضمن العيوب التالية: أنها أولا جمعت بين كلمات من اللغة العربية ، وسوابق من لغة أخرى، ثانيا أنها مزجت بين كلمتين لغير ضرورة لغوية أو اصطلاحية مع أن التركيب المزجي له أسبابه ودوافعه المعروفة، كما أن تصريف كلمة معربة ممكن نظريا وعمليا، لكن بعد أن تكون الكلمة المعربة متماشية مع المنطق الصرفي العربي، أما أن نخضع للتصريف تركيبيا نصفه عربي ونصفه الآخر أعجمي فأظنه غير مقبول لغويا، أو غير مناسب للذوق اللغوي العربي على الأقل.

ومما يرتبط بعدم الدقة في الترجمة تداخل ترجمة مصطلح بترجمة مصطلح آخر من ذلك مثلا ما نجده في ترجمة مصطلحات Code و Signe و Geste، فلقد ترجم الأول بالنظام، كما ترجم بالرمز، وترجم الثاني بالرمز، كما ترجم بالإشارة، وترجم الثالث بالإشارة، وهذا كله يحدث تشويشا في الفهم واضطرابا في المفاهيم.⁸

وما وقع لمصطلح النص Texte أو الخطاب Discours قد يعني دلالة معينة في النقد الألماني ودلالة أخرى في النقد الروسي ورابعة في النقد الفرنسي وخامسة في النقد الإنكليزي .. الخ، نحن لا نريد هنا الدخول في مناقشات حول هذه الترجمة أو تلك، إذ ما يهمنا ليس تقديم مقابلات صحيحة لكل مصطلح على حدة، بل الإشارة إلى مسألة انعدام الدقة والسقوط في ميوعة توظيف المصطلحات النقدية، هذه الميوعة التي تذهب أحيانا إلى حد نجد فيه كتابا نقديا واحدا لا يوحد ترجمته مصطلحاته ومفاهيمه... وهو ما يولد سلسلة غير منتهية من الارتباك والتداخلات التي تحول المصطلح النقدي الحديث إلى أداة للتفكك والاضطراب والفوضى...

⁸ انظر ترجمات الكتب التالية إلى العربية: Critique et vérité – de Roland Barthes /

Le degré Zéro de l'écriture

فالترجمة الأولى لأنطوان أبو زيد، (النقد والحقيقة)، والترجمة الثانية لمحمد برادة (درجة الصفر في الكتابة)

وعلى هذه الوثيرة نصادف المصطلحات الغربية ذات الأصول العربية التي توجد في مختلف العلوم، ومن ذلك مثلا مصطلح **Préislamique** الذي ترجمه البعض ب - قبل إسلامي - وهي ترجمة حرفية تترجم عن العربية أصلا.

سابعاً: ومما زاد الطين بلة تفشي ظاهرة " التغريب"، والتي تقتضي استبدال اللفظ العربي باللفظ الغربي تهميش اللغة العربية بعد ظهور نظريات تهدف لهدم تماسك المسلمين والعرب عن طريق هدم وحدة الدين واللغة... أو لستم معي بأن الفرق بين "التغريب" و"التعريب" ليس نقطة فوق العين إنما هي نقطة لاسعة فوق العقل العربي طال أمدها في حياتنا العربية أكثر مما ينبغي ، فما يزال الاستعمار الثقافي جاثماً على صدر الأمة العربية الإسلامية، وما يزال الانبهار قائماً عند العامة.

تقول سامية أسعد: " الواقع أننا ك مترجمين عندما نتعامل مع النصوص، نجد أنفسنا أمام عقبة أساسية هي اللغة، ونضطر إلى توجيه كل اهتمامنا إلى خلق مصطلحات ومشتقات بعضها مفهوم وبعضها نُقلُّه إلى العربية غير متيسر، وهذه العملية تجعل نقل الكتابات النقدية الغربية غير كاملة إلا لمن استطاع الإطلاع عليها في لغتها الأصلية، وهنا نجد أن الناقد الذي يتمكن من القراءة النيوية، أو قراءة لوسيان كولدمان أو رولان بارث مثلا، في النص الأصلي هذا الناقد يجد صعوبة في تطبيق هذه المناهج على الأدب العربي، إذ ما طبقها فإنه لا بد أن يفرد حيزاً في نقده للذاتية وللنزعة التأثرية"⁹.

يشي هذا القول بوعي النقاد بأزمة ترجمة المصطلح النقدي، التي تؤدي أحيانا إلى تقويض النظرية النقدية وإرباك فهم المتلقي. لقد أضحى المرء يجد نفسه أمام مصطلحات متعددة لمسمى واحد، مما بات يفرض ضرورة إلقاء الضوء على الأساليب الكامنة خلف هذا الشرود والإيماء في نفس الآن إلى سبيل تجاوز هذا الاضطراب، وفق ما يستدعيه البحث العلمي الرصين وما تستلزمه رغبة التأصيل وتوحيد المصطلح النقدي عربياً، حتى يتمكن من مساهمة التطور العلمي المتواصل والنشاط المعرفي المتدفق مساهمة أصيلة ومعاصرة، بعيدة عن التخبط والارتباك.

⁹ سامية أسعد: اتجاهات النقد الأدبي، ندوة مشكلة المنهج في النقد العربي المعاصر، فصول مجلد 1، عدد 3، 1981 ص

فسلطة المصطلح هي سلطة المعرفة الإنسانية بكل ما تحمل من دلالات فكرية ومن هنا جاء سلطان المصطلح النقدي معبراً عن تجربة أدبية عميقة الجذور بوجودان الأديب وفكره لا تسمح بأي استبداد معرفي خارج نطاق الوضوح والاستقرار والتوفيق في التعبير عن أبعاد تلك التجربة أسلوباً ولغة وصورة وبناءً وجمالاً فنياً.

ويعد علم المصطلح بالمفهوم الحديث ، أو كما يحلو لبعض تسميته المصطلحية **Terminologie**، مجالاً بكرًا في الثقافة العربية، ويحتاج إلى سواعد بحث جادة للعناية به كمعلم جديد يشق طريقه في التأصيل، وجدير بالذكر أن جهوداً فردية وجماعية تبذل لتأسيس القاعدة الأساسية له ، إلا أن المصطلح النقدي لا يزال يشير قضايا هامة وإشكاليات حقيقية تستحق إيلاءها مزيداً من العناية والاهتمام. لأنه يمتح أدواته من العلوم المجاورة والتيارات الفلسفية المعاصرة بحيث أضحينا نسمع عن النقد التكويني ، والنقد النفسي، والنقد الاجتماعي، وغيرها. ولعل صفة العلمية تطلب فيما تتطلبه أن يتصف الخطاب النقدي بمواصفات أهمها الوضوح والدقة، وتطرح إشكاليات يصعب إجمال جميع الإشكاليات التي يطرحها، لذلك سنقتصر على إبراز إشكالية وهي تلك المتعلقة بالترجمة، إذ لا زال الصراع قائماً بين سلطتين لا يمكن الاستغناء عنهما : سلطة المصطلح وسلطة المعرفة التي يحملها هذا المصطلح ، الأمر الذي يجعل صنع المصطلح وصياغته من الأمور العلمية الصعبة والمعقدة في آن واحد أمام تراث اصطلاحي عربي نقدي غني، وثروة هائلة من المصطلحات الأجنبية الحديثة التي تعج بها الساحة الأدبية والنقدية في الوطن العربي وفي أنحاء شتى من العالم المعاصر.

يستمد النقد العربي الحديث مناهجه وآلياته التحليلية من مستودع النقد الغربي – كما سبقت الإشارة- وذلك عن طريق التعريب أو الترجمة. وأمام التدفق الهائل للمعرفة والرغبة في المسابرة والتجيين، أصبحنا نجد استخداماً انطباعياً وعشوائياً للمصطلحات النقدية. مما تسبب في إلحاق الضرر بجوهر المصطلح الذي صار مضطرباً، وبعملية التوصيل للمتلقي الذي بات فهمه مشوباً ومشوهاً.

إن المصطلح النقدي يتأثر أثناء نقله من لغته إلى لغة أخرى، مما يؤدي إلى غموضه واضطرابه، وبالتالي الإخلال بالمنهج وضياع المعرفة تحت تأثير أسباب عديدة تكون ثانوية خلف ذلك، وتعد الفوضوية التي يعرفها المصطلح النقدي أمراً مستهجنًا في خطاب النقد العربي الحديث، لهذا وجب التصدي لها ومجابتها بآليات عملية تضمن لها وظيفتها الإبلاغية وتعال استحسان المتلقي وتحوز رضاه. خاصة وأن المصطلح النقدي لم يحظ بمثل ما حظيت به المصطلحات العلمية والتقنية. فما يزال يعاني من الاضطراب وعدم الاستقرار أثناء ترجمته.

لا أحد ينكر أن الدراسات الأدبية الغربية أم ولود تنتج العديد من المصطلحات بشتى الوسائل حسب طبيعة اللغة المستخدمة وطبيعة الدراسة المنتجة، وحينما تترجم هذه الدراسات إلى العربية وتؤخذ مفاهيمها ومصطلحاتها إلى العربية، وتوظف فيها، يقع الاضطراب وتتعدد الترجمات وتنقلب بعض المصطلحات بين العشرات من المقابلات وتستعمل للدلالة على نفس المعنى، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد:¹⁰

- مصطلح الشعرية **Poétique** فهو: البوطيقا/ بويتيك / فن الشعر/ الإنشائية/ نظرية الأدب/ قضايا الفن الإبداعي/ علم الأدب / صناعة الأدب .
- مصطلح العدول **Ecart** فهو: الانزياح/ الانحراف/ الانعطاف/ الخروج / المجاورة/ الاتساع/ البعد.
- مصطلح التفكيكية **Déconstruction** فهو : التشريحية/ التقويضية/ التحليلية البنيوية .
- مصطلح الخطاب **Discours** فهو: الأطروحة/ الحديث/ الإنشاء/ أسلوب التناول/ لغة الكلام/ الكلام المتصل.
- مصطلح التناص **Intertextualité** فهو: جوارية/ تعالق النصوص/ تداخل النصوص/ جامع النص .
- مصطلح التأويل **Interprétation** فهو: الهيرمنيوطيقا/ التأويلية/ التفسير/ نظرية التأويل .
- مصطلح المجاز **Allégorie** فهو: الترميز / الليجورة التقليدية / أليغوري ...
- مصطلح **Thematique Critisme** فهو: النقد الموضوعاتي/ النقد الموضوعي/ النقد الثيماتي/ النقد الجذري/ النقد المداري.
- مصطلح الرومانسية: **Romantique** فهو: الرومانطيقية/ الرومانسية/ وأحيانا نجده محمولا في الإبداعية.
- مصطلح الشعر الحر: **Vers libre** فهو: الشعر المعاصر/ الشعر الحديث.
- مصطلح البنيوية: **Structuralisme** فهو: البنائية/ والبنيوية...

¹⁰- كل المصطلحات الأجنبية الواردة في هذه المداخلة مكتوبة باللغة الفرنسية لأن المصادر المعتمدة هي مصادر فرنسية.

أما ما حدث لمصطلح **Linguistique** فحدث ولا حرج، فهو علم اللسان مرة، وعلم اللغة مرة، والألسنية مرات كثيرة، وعلم الإشارة، وعلم العلامات، وعلم الأدلة اللغوية.

ونلاحظ أيضا ترجمات تنم عن عدم إطلاع اللاحق على أعمال السابق أو تجاهلها، فيخترع مصطلحات تنسم بالذاتية والانطباعية، لدرجة يشعر معها القارئ، وهو يتابع هذا الكم الهائل من الدراسات المنشورة، أن كل باحث أصبح يشكل مدرسة اصطلاحية نقدية قائمة بذاتها معزولة كلياً عما يجري حولها في المدارس الأخرى رغم اعتمادهم جميعاً على خلفيات مرجعية نظرية غربية مشتركة، الأمر الذي أصبح معه التواصل مع هذه النظريات الغربية في مضانها ولغاتنا الأصلية أيسر بكثير في بعض الأحيان من الإطلاع عليها في ترجماتها العربية، نظراً للاضطراب الهائل الحاصل في ترجمة المصطلحات النقدية وعدم التنسيق بين النقاد وتشتت جهودهم، وهو اتجاه نحو الفردانية عكس ما تدعو إليه المجامع اللغوية واللقاءات العلمية والمؤسسات المختصة.

فالمصطلح النقدي جزء من الدرس النقدي والكتابة النقدية أو أدب النقد وله علاقة بل علاقات متعددة بغيره من ميادين المعرفة من علوم وفلسفة وفنون وهو من خلال هذه العلاقات يكشف عن تاريخه العريق بوصفه مصطلحاً وفي حالة استعماله في النقد على سبيل المثال يتجلى بعده الآني الواقعي، فهناك علاقة وثيقة ودائمة بين المصطلح والمبدع والمتلقي، كما أن له علاقة بالواقع الاجتماعي والثقافي لذلك فإن تعدد دلالة المصطلح واختلافها هما دليل على وعي مستخدم المصطلح بهذا التعدد وذلك الاختلاف، وإذا انعدم مثل هذا الوعي تحول المصطلح أو التعبير الاصطلاحي إلى ضرب من الازدواجية والتعقيد وأخيراً إلى الفوضى في الفهم والاستيعاب والاستعمال، لاسيما إذا ارتبط المصطلح بالقضايا السياسية والاجتماعية فضلاً عن الثقافة.

زد على ذلك تداخل الميادين المعرفية، لقد أخذ النقد الحديث يفيد من مختلف العلوم الإنسانية، وبالتالي تداخلت المصطلحات، مما سبب إرباكاً لدى المترجم وعند القارئ على حد سواء.

ولتنفيذ إستراتيجية التجاوز نقترح سببلاً لا نحسبها كافية شافية، عليها تنير الطريق لمصطلح الخطاب النقدي العربي الحديث وتذلل ما يعترض سبيله من صعوبات وتعمل على تجاوز العقبات، نستهلها:

أولاً: ضرورة وضع قواعد جبرية لوضع المصطلح النقدي وذلك وفق ضوابط تهم المعنى ووضوح الدلالة، وسلاسة اللغة وصوغ المصطلح، وفقاً للنسق العربي وقواعد تعريب الدخيل حين انعدام المقابل المناسب في

التراث العربي. فعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها المجامع اللغوية العربية ومركز التعريب التابع للجامعة العربية ومجلته "اللسان العربي" التي تصدر في المغرب وبقيّة المؤسسات الجامعية والثقافية، تلح الحاجة على الوصول إلى مشترك اصطلاحي مترجم أو معرب تفادياً للتشتت والتباين واللبس والغموض.

ثانياً: مراعاة تطابق التصور مع المفهوم، مع ضرورة الوعي بالمرجعية والسياق الفكري للمصطلح. فالمصطلح النقدي هو قاعدة جوهرية في بناء نقد أدبي جاد نتوسم فيه إضاءة مشرقة وكثيفة في تحليل المناهج نظرياً وتحليل النصوص الإبداعية تطبيقاً حيث يولد ما يمكن أن نصطلح عليه بأدب النقد بوصفه جنساً أدبياً يتأرجح بين كونه علماً وكونه فناً، وبين كونه حكماً جزئياً وحكماً كلياً، وبين كونه تفسيراً أو شرحاً للنص الأدبي وتفسيرياً وتحليلياً لهذا النص أو ذلك من فنون الشعر وفنون النثر المختلفة المنضوية تحت مصطلح (الأجناس الأدبية أو الأنواع الأدبية) وهو -أي المصطلح النقدي- يتمتع بدور حاسم، وشخصية معرفية متميزة في ضبط المفاهيم وتوضيح الدلالات والرؤى. فدقة ضبط المفهوم ووضوحه ووحدته هي من أبرز سمات المصطلح النقدي.

ثالثاً: وجوب احترام التخصص ونبذ تلك المصطلحات الانطباعية والذاتية التي تنم عن حب البروز والأنانية، لأنها لا تغني الساحة النقدية بقدر ما تسيء إليها وإلى المتلقي. وتخون النص الأصلي خيانة عظمى... فتوحيد المصطلح النقدي معناه وجود شفرة قابلة للفهم والتواصل، تتجاوز مرحلة اللامنهج والانتقال من العشوائية والانتقائية والانطباعية في الحكم النقدي إلى الوعي النقدي المنهجي القائم على أسس ومعايير نقدية واصطلاحية مشتركة ومعترف بها من قبل المؤسسة الثقافية والنقدية، فالترجمة مسؤولية ومعاناة ولا يحس بذلك إلا المترجم الذي يحترم نفسه، ويحترم المتلقين والقراء المترجم لهم. إن الترجمة الرديئة أو المغلوطة أو المغشوشة، إن لم تقتل تضر.

إن الترجمة العربية المحترمة تشعر المتلقي أو القارئ بأنه يتلقى أو يقرأ علماً أو مصطلحات عربية حقيقية. أما الترجمة الرديئة فتعكر صفو الاستفادة، وفي حالة لم يجد المترجم في التراث اللغوي العربي المصطلح الملائم سيكون مجبراً على اختراع مصطلح، فالنحو العربي يستعمل مثلاً التركيب التالي:

"ظلم زيد نفسه"، ولكن لم يعط له مصطلحاً، في حين إذا بحثت له عن معادل في الفرنسية أو الانجليزية،

فتسجده معبر عنه بمصطلح واضح واحد هو **La Réflexivation**.

وفي مثل هذه الحالة، يصبح المترجم العربي مبدعا عندما يختار لترجمة المصطلح الغربي المصطلح العربي الذي لن يتعب كثيرا في العثور عليه.

رغم كل هذا التفاؤل في حل مشاكل ترجمة المصطلح الأجنبي، ينبغي أن نعترف أن كثيرا منها لا يمكن حلها عن طريق المجهودات الفردية لهذا:

1- ندعو إلى تشجيع المجامع والمؤسسات المختصة لتفعيل أدوارها والقيام بمهامها على أكمل وجه. وذلك من خلال التصدي لفوضوية الترجمة للمصطلحات الوافدة على البلاد العربية. لأننا نؤمن أن اللغة ليست نظاما مرجعيا **systeme de référence** فحسب، بل هي نظام تعبيرى **systeme expressif**.

2- ندعو لوضع معاجم تشمل الرصيد المصطلحي النقدي لتوحيده عربيا. وتوفير معاجم مختصة يشرف على تأليفها جماعة من العلماء يشهد لهم بسعة العلم والمعرفة في مجال تخصصهم، فتعرض مفاهيم المصطلحات بإسهاب دون أن تغفل توالد وتناسل النظريات التي تتأثر داخلها فبدأ بدقة المعلومات وتنتهي بسلامة الأسلوب والتعبير وتماسك الأفكار، وتجنب المعاجم اللغوية التي لا تفي في غالب الأحيان بالمطلوب. إذ لا بد للمصطلح النقدي من أن يمر بعملية فحص ومراجعة وغرلة دقيقة حتى لا يمرر بطريقة عشوائية أو تقليدية ويحاول ربطه بالحصيلة النقدية الحديثة من جهة وبموروثنا النقدي والبلاغي لكي يتسنى للحركة النقدية والأدبية العربية من خلق لغة اصطلاحية مشتركة تحقق التواصل الصحيح بين الناقد والقارئ.

3- ندعو إلى الاستفادة من شبكة الانترنت لخدمة المصطلح النقدي العربي نشرا ودراسة واستخداما، وربحا للوقت وضمانا لتواصل أكثر نجاعة، وقضاء على الفردية التي تفقد المصطلح حمولته الدلالية الموضوعية المرتبطة بمرجعية محددة واحدة، ليستبدلها بأخرى متعددة بتعدد واضعيها واختلاف مستوياتهم، مما ينعكس سلبا على كفاية المصطلح الإجرائية ودوره الفعال في توحيد المعلومات وتيسير تداولها.

4- نقترح على المترجم أن يعود إلى الأعمال السابقة عليه، لأننا في حاجة إلى الاتفاق ولا نرغب في الخلاف والاختلاف. فالترجمة (نص/ نص) عكس المعاجم (لغة/ لغة)، فالأولى هي نقل موقف كلامي

محدد زمانيا ومكانيا من لغة إلى أخرى ، أما الثانية فهي لا ترتبط بأي موقف تخاطبي معين وتقدم مقابلات لإمكانات الاستعمال بين لغتين.

5- نقترح وجود متخصصين في دور النشر يراجعون الأعمال المترجمة. فهم لا يمارسون الرقابة أو الوصاية على الأعمال المقدمة بقدر ما يؤدون وظيفة ثقافية تسعى إلى جعل النص المترجم سليم الصياغة . ولا نعرف في وقتنا الراهن سوى عدد قليل من دور النشر التي تطلب من مراجعين مختصين مراجعة النصوص المترجمة -على سبيل المثال لا الحصر سلسلة عالم المعرفة الكويتية - ولكن أكثرها لا تفعل بحجة التكاليف ورغبة في ربح سريع . والحاجة إلى وضع معايير راقية لتنظيم مهنة النشر في مجال الترجمة ملحة إذا ما أردنا الحد من هذه الفوضى .

6- نؤكد أن اللغة أخلاق تحرص على أصول المعاني ولا تسعى إلى إفسادها، هي الأداة الأولى في عمليات التواصل والاندماج داخل المجتمع، وهي أداة أساسية لتحديد الهوية والتعرف على الذات، واللغة العربية على الخصوص تنفرد عن الأخريات بثلاث عوامل : هوية الفرد - وهوية الجماعة - وهوية الدين، لهذا نقترح لجنة علمية متخصصة تنتمي إلى مجمع لغوي تراجع عمل المترجم قبل خروجه للناس.

7- إن اللغة والحضارة وجهان لعملة واحدة، فلا حضارة مزدهرة بدون لغة مزدهرة واسعة الاتساق، لا ثقافة بدون هوية حضارية ولا هوية بدون نتاج فكري نقدي، ولا فكر بدون مؤسسات علمية متينة ولا علم بدون حرية معرفية ولا معرفة ولا تواصل ولا تأثير بدون لغة قومية ضاربة بجذورها في التاريخ تقف بشموخ أمام العصر بكل إرهاباته.

لا بد من الاعتراف بحاجتنا الماسة والملحة لنهضة لغوية شاملة قادرة على تلبية مطالب ومقتضيات العصر شريطة أن لا يُلقى ذلك على عاتق اللغويين فقط ، بل لا بد من وجود التقنيين والفنيين في مجال الحواسيب والعلماء بشتى التخصصات ، والاقتصاديين والسياسيين والأكاديميين والمشتغلين في مجالات الكتابة الإبداعية بجانبهم للوصول إلى صيغ ومصطلحات ومفردات عربية سليمة دقيقة علمية وعملية أيضا... والعمل أيضا على تعريب الحاسوب وليس الترجمة العربية فقط ، ورعاية عباقرتنا الشباب الذين لديهم إمكانات مذهلة في فهم التقنية التي بين أيدينا ولهم تجاربهم الهامة في عوالمها...

نحن لا نرفض مسألة التناهد اللغوي أو الانفتاح على لغة الآخريين، إن كانت قائمة على أصول لغوية وقواعد مُتفق عليها بين العرب جميعا ، ولا نرفض تعايش مصطلحات غير عربية قي الثقافة العربية مادامت لا تحمل معول هدم في الجوهر والمعنى والأداء اللغوي، دليلنا على ذلك كثرة استعمال المصطلحات غير العربية كالتلفزيون، التلفون، الانفلوانزا...

إننا نخاف مما هو مائل أمام أعيننا من أمثلة صارخة من زحف الكلمات المبهمة وتحولها بقدرة الفوضى واللامبالاة إلى مصطلحات متداولة... إن اللغة ليست لعبا من ألعاب اللسان أو صدى لموجات صوتية ضائعة في الهواء، وإنما هي أداة فكر وثمره انفعال ومطلب توصيل وتأثير، إنها قوام حياة، وبقدر ما تستقيم اللغة يستقيم الفكر ويتضح الانفعال ويسهل التوصيل ويصح التأثير، فقد يذهب علم العالم إذا لم يملك ناصية اللغة فلم يحسن التعبير، وقد ينصرف التأثير ويمضي شططا إذا اختلط النطق وأبهم القول...

إننا نخاف من يوم لن نجد فيه من شبابنا من يقرأ العربية وتهزه قصيدة شعر، ولا يكثرث للعقلاني من الكتابات الورقية من كتب ذات أبعاد فكرية أو كتابات إبداعية. للأسف الشديد هذه اللغة المنتشرة على الشبكة العنكبوتية بدأت تمسخ لغتنا القومية (العربية) بانتشارها في البيوت والجامعات والشوارع والمحلات التجارية وعناوين الشركات الاستثمارية... إنها أقوى النماذج للتشوه والبؤس الحضاري الذي نعيشه على الأرض العربية. إنها تعبير عن انكسار الأمة العربية فينا وانكسارنا في قلب هذه الأمة.

إن اللغة العربية عملاقة بأصالتها وقوتها وعوامل بقائها ستبقى وتعيش وتتفاعل مع الواقع ، ولا تتخلى ولا تنعزل وإنها ستبقى تسائر الزمن وتستجيب لتجديد الحياة واتساع آفاقها لأنها هي التي حملت على كاهلها أكرم دعوة وأعلى نداء، وأرقى ما يطلب إليه الفكر والوجدان، من قبس التوحيد والإيمان، وستظل فاعلة في كيان الإنسان العربي والمسلم ما بقي هذا السجل الخالد لقانون الحياة ونظام الوجود: القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين لمن أراد أن يكون إنسانا يصلح ويفهم ويعقل ويهتدي" قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءً، والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ"¹¹.

اللغة العربية أمانة اليوم في أعناق هذا الجيل. فالتحديات التي تواجهها الأمة في النواحي الثقافية والفكرية والتقنية كلها ذات علاقة باللغة، لذلك فإن التقاعس عن خدمة اللغة العربية اليوم يؤثر على مستقبل الأجيال القادمة وعلى نهضة الأمة وتقدمها...

¹¹ سورة فصلت الآية 44.

إننا نخاف أن تتراجع اللغة العربية الفصحى لتتحول إلى لغة لاهوتية لا يعرفها إلا حفظة القرآن الكريم والمهتمين به، والذين يعتبرونها محمية بمعجزة إلهية تعيش في مأمن وأمان انطلاقاً من قوله تعالى: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون." إننا نخاف أن تصبح اللغة العربية الفصحى نخوية لا يتداولها إلا المثقفين فقط... فانقدوا هذه اللغة قبل أن تنهاوى.

" رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه. "

صدق الله العظيم

والسلام على مقامكم العالي ورحمته تعالى وبركاته

بشرى عبد المجيد تاكفراست

مراكش / المغرب

لائحة المصادر والمراجع

- 1- أحمد بوحسن: مدخل إلى علم المصطلح: المصطلح ونقد النقد العربي الحديث ، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان: 60-61، سنة 1989، بيروت.
- 2- توفيق الزبيدي: جدلية المصطلح والنظرية النقدية، قرطاج، 2000.
- 3- ثائر ديب : محنة الترجمة في الثقافة العربية، مجلة الآداب، عدد 5-6 ، ج 1 مايو /يونيو 1999.
- 4- ثامر فاضل: اللغة الثانية، في إشكالية المنهج والنشئة والمصطلح، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
- 5- جهاد فاضل: أسئلة النقد ، الدار العربية للكتاب /بيروت .
- 6- سعيد علوش ، هرمونتيك النقد الأدبي، دار الكتاب اللبناني بيروت، سوشيريس الدار البيضاء الطبعة الأولى، سنة 1985.
- 7- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق المغرب، 2002.
- 8- ميجان الرويلي وسعد البازغي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من خمسين مصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، طبعة سنة 2000.
- 9- J. Miescher : Analyse pragmatique du discours/ Editions Hatier 1985.
- 10- Lucien Goldmann : Recherche Dialectiques / Gallimard / Paris 1972.
- 11- Roland Barthes : Critique et vérité / du Seuil/ Paris 1966.
- 12- Roland Barthes : Le degré Zéro de l'écriture Editions du Seuil/ Paris 1966.

مجالات:

- 1- إدريس الناقوري، المصطلح العلمي ، التأسيس والتجديد، اللسان العربي، عدد 46
- 2- عبد المالك مرتاض ، نظرية التقويض: مقدمة في المفهمة والتأسيس، مجلة علامات في النقد الجزء 34، شعبان 1420/دجنبر 1999.
- 3- محمد الدغمومي، أوهام المثقفين، سلسلة شراع عدد 17، صفر 1418 /يوليوز 1997.
- 4- محمد العمري، مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعرفي، مجلة فكر ونقد، عدد 20.
- 5- يوسف بكار، نقادنا ونقدنا العربي الحديث، مقارنة عامة، مجلة علامات في النقد الأدبي، المجلد السابع، عدد 29، جمادى الأولى 1419 / شتنبر 1998.